سلسلة
استراتيجيات الحركة الحيوية (٣)

منظومات التحريك

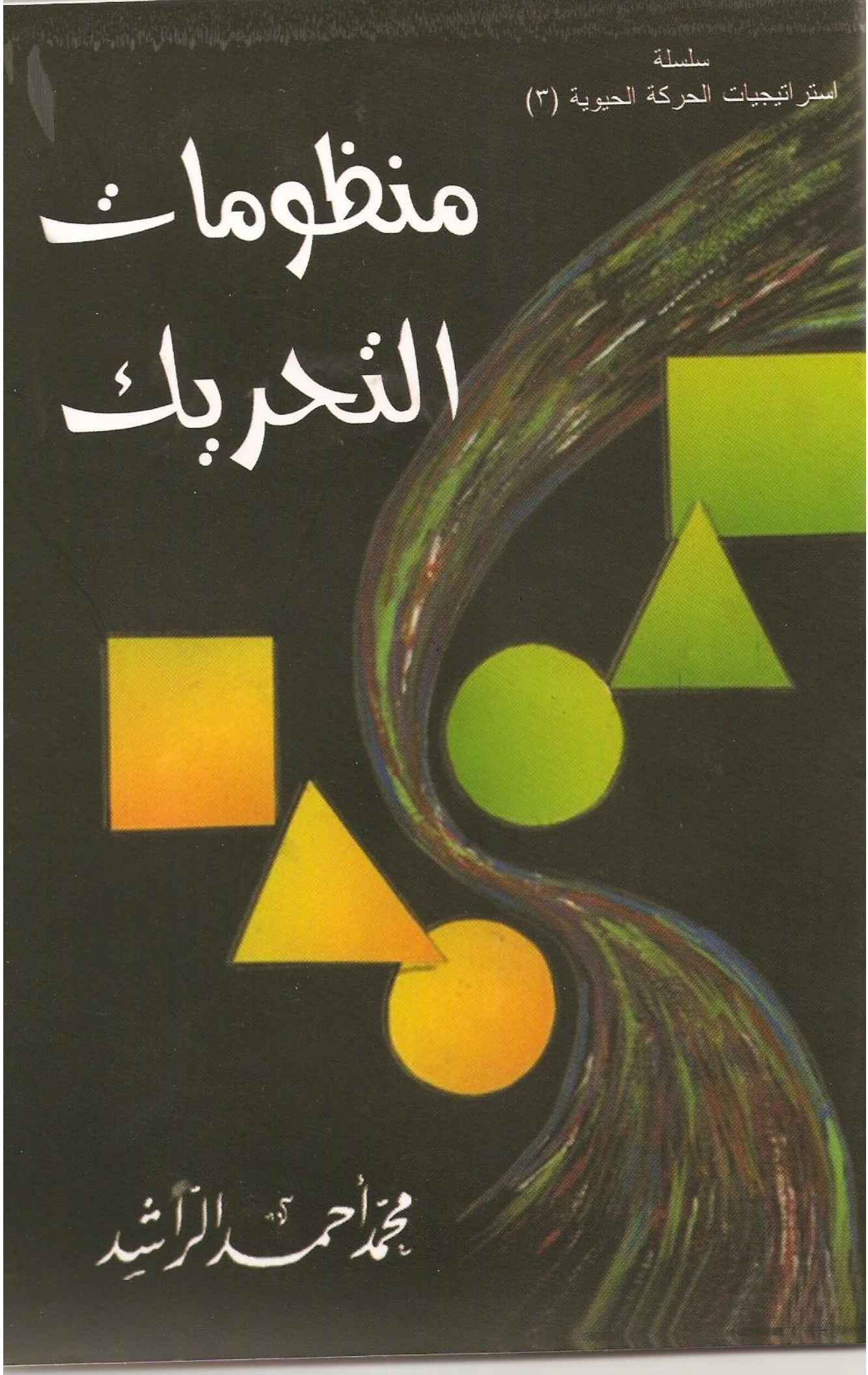

د. محمد أحمد الراشد

((إشارات الغلاف))

تيار الحياة المتلون

يتهادى ويتعطف

ويبقى جارياً... كما كان

وعلى جانبيه كُتَل المعاني ومنظوماتها

وأنواع المعادلات المتناظرة

وجوامع الدلالات المتكاملة

تمده.. وينقلها... وتثريه.. ويغربلها

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة لدى العالم

دار الأمة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الرياض : ٠٠٩٦٦٥٥٤٤٨١٩٠٥ ـ فاكس :٠٠٩٦٦١٢٤٨١٩٠٥

جدة : ٠٠٩٦٦٥٠٠١٥٠٤٠٤ ـ فاكس : ٠٠٩٦٦٢٦٨١٠٥٧٨

emal:alomh@gawab.com

غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد الكترونية

إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة الثالثة

منظومات التحريك

آراء في فقه التخطيط وفلسفته وآفاقه

وبيان كيفية استثمار مجموعة تيارات التحريك الحيوي

وآليات تأليف الإنسان المؤمن الجديد وإعادة صياغته

محمد أحمد الراشد

٣ منظومات التحريك

❑❑ أهم طرق مقاربة الحركة الحيوية: أن يلمس "المسلم الحضاري" وجودها، ويحسّ بفورانها العارم، فيرمي نفسه في الخِضَمّ، ويصاحبها، فتنتقل إليه حرارتها، وتدفعه حركات الذين انغمسوا قبله.

والتجارب الإنسانية سَنَدٌ متصل، ومعاني الأحرار القدماء تجد لها وارثاً في صورة شاعر يقتفي..

وإني متى أهبطْ من الأرض تَلْعَةً

أجدْ أثراً قَبْلي جديداً وعافياً

والتلعة: ما علا من الأرض أو سفل.

والعافي: ما انمحى أثره وبقي من الأثر ما يدل عليه[1].

وليس في هذا نكران الإبداع، ولكن من الإبداع: الاقتفاء، وإحياء المعنى المندرس، وإنما هو يتحدث عن موقفه في عرصات الإصلاح، وأنه وجد نفسه غير متفرد ولا مستوحش، وإنما عَثَر على رائد سبقه، وأنيس مصاحِب، فهو ضمن الجمهرة، يقوِّيها ويتقوى بها، والتفاعل مع معطياتها هو أكمل الإنجاز، وبه تتحرك الحياة، فالمصلحون كتلة واحدة على مدى التاريخ، وهو جزء من كل، وسرعان ما يجد المصلح إذا شَرَعَ وجَهَر: أنه يجري ضمن السياق، فيكون منه انتماء، وكأنّ روحه متصلة بأرواح السلف الذي سبقوه.

● إنما ذلك لا يمنع أن يكون هناك تمايز، وخصوصية، واستقلالية، وذوقية مغايرة، فإنما الوحدة هي وحدة القلوب والأهداف، وأما مَن يقوم على الثنايا كافياً، ويُكلَّف بسدّ ثغرة: فإنه:

له طابعٌ يجري عليه، وإنما

تُفاضِلُ ما بين الرجالِ الطبائعُ

(له طابِعٌ حسن، بكسر الباء: أي طبيعة).

(وطَبَعَهُ اللهُ على الأمر، يطبعه طبعاً: فَطَرَه. وطبع الله الخَلْقَ على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها، وهي خلائقهم، يطبعهم طبعاً: خَلَقهم. وهي طبيعته التي طُبِعَ عليها وطُبِعَها)[٢].

ومن خلال هذه التنوع يكون التكامل.

وعَبر البصمة الفطرية: ينساب الإبداع.

● وهذه الظاهرة من ظواهر الحياة تسري في الاتجاه الآخر أيضاً، فتَصْدُق على من يربيهم المصلح، وتؤسس استعداداً في داخل نفس «المؤمن الإصلاحي المنهجي» لأن يتعامل خلال عمليته الإصلاحية وتحريكاته للحياة مع طبائع نفسية عديدة، وأن يُضمر نسبية التعامل مع مَن يحيط به، وأن يتفنّن ولا ييبس، ويتلوّن، دونما إبهام، ويكون منه وفاء لحاجات الجميع، وممارسة لسياسة اجتماعية مفتوحة.

وفي ثنايا مدح «سيدي عبد الله بن أحمد دام» لشيخه «سيدي» نبيل موريتانيا في عصره: تقريرٌ اجتماعي يصف فيه تأثير تنوع المظاهر الحيوية في تصنيف الناس إلى أشكال عديدة حسب حاجاتهم، ومن ذلك قوله في أبيات متفرقة من قصيدة واحدة:

حتى وضعتُ عَصى سيري بباب فتىً

يؤوي الطريد، ويولي الراغبَ الرَغَبَهْ

أغنى العماعِمَ مِن راجيه سيبُ نَدَا

مَن لا يَمُنَّ على العافين ما وهَبَهْ

أحنى على الشُّعثِ، والأيتام، مِن نَصَفٍ

على صغيرٍ لها قد أكْبَرَتْ عَطَبَهْ

يلقى العُفاةَ بوجهٍ من سماحته

كالهندوانيِّ تجلو مَتنَهُ الجَلَبَهْ

مِن مُعْتَفٍ، وأُخيٍّ فتوى، ومُلتمسٍ

فصلَ القضا، ومُريدٍ كشفَ ما حُجِبَهْ

أو كشفَ مسألةٍ، والكُلَّ قد وسِعَتْ

جِفانُه، ولكلٍّ منه ما طَلَبَهْ[٣]

فها هنا دراسة اجتماعية في إحصاء أنواع الناس وأهل الحاجات الذين يتعامل معهم "المؤمن الإصلاحي" ويُودِعُ خُطَّتَهُ كيفية التعامل معهم.

وهم: طريدٌ مهاجر، فيحاول أن يؤويه.

والعافون: وهم الذين يتتبعون آثاره الخيرية.

والشُّعث: الغرباء والفقراء، والأيتام، وطالبُ الفتوى، وطالبُ القضاء والتحكيم، ومتجرد يعتني بالنفس على مذهب التزكية الروحية ويهتم بالمعنويات ويريد أن يُعينه مربٍّ على رؤية العوائق لتجنبها وينطلق في جولة أخرى، وطالب علم يريد نقاشاً، فهؤلاء عشرة، وفي تعدادهم إشارة إلى تنوع مكونات المجتمع وسعة أطراف الحياة، ومجموعة دعاة الإسلام الذين يريدون تحريك الحياة من شأنهم أن يتعاملوا بالمعروف والحُسنى مع هؤلاء، وأن تستقصي الخطط أوضاعهم.

❑ تأليف الإنسان المؤمن الطارف العصري

وهذه تكوينات قَدَرية للناس، وهندسة أنشأت نفوساً على هذه الصفات، ولكن الذي يريد "تحريك الحياة عبر التربية" لا يجب عليه الإذعان للأمر الواقع، بأن ينوي تعاملاً دائماً مع صفاتهم هذه ويستسلم لما هُم عليه، بل له أن يتأمل، ويفحص، فيرفض الصور التي عليها بعضهم، ويقترح على نفسه إعادة صياغتهم، وإجراء ترميمات ومُناقلات واستدراكات، ليخرجهم في "تصميم" جديد يناسب حاجة الأمة ومخططات رجال التحريك، وذلك فرع من القاعدة الاستراتيجية الكبرى في تحريك الحياة: قاعدة دفع قَدَر السوء بقَدَر الخير.

وهذه هي الصنعة الدعوية التي ينبني عليها الأمل بالتغيير وفتح أبواب المستقبل، وما هي من العلم الحديث، وإنما جذرها قديم، وهي مجرد مُفردة من مفردات إحياء فقه الدعوة، نكتشفه عبر التنقيب، فنذيعه ونبعثه.

وكان مخزوناً في بيت شعر لا أعرف قائله، إنما أعرف ما فيه من وضوح خطة التشكيل، وعمق الإبداع، ونوايا التطوير.

ونصه الرائع يريك:

وصْلاً وفَصلاً، وتجميعاً ومُفْتَرَقاً

فَتقاً ورتقاً، وتأليفاً لإنسانِ[٤]

فها هنا خُطة جريئة فيها:

إعادة هيكلة.. وتجديد بناء.. وتبديل أجزاء.. وتغيير ترتيب.. ونقضٌ وإبرام.. مع هندسة تعيد المقاسات.. وتركيب مَفاصل ومَحاور تتيح المرونة.. وكسر يعقبه جبر وتقوية لحام..

من أجل أن "يتألف إنسان طارف" بمواصفات مستأنفة.. يتلاءم مع الحاجة والواجب.. والظرف والبيئة والمعطيات.

○ وهذه مهمة تربوية وتدريبية، تعتمد الفكرة والعقل والعاطفة، من أجل إنتاج عناصر مؤهلة لتنفيذ المشروع الحضاري الإسلامي وما يستلزمه من تخصصات ومعرفيات وعلوم، ومهارات قيادية ومشاعر نفسية تحدو إلى التحدي والاستعلاء.

○ إنّ "تأليف الإنسان" هو الشعار الذي يرفعه فقه الدعوة لتمكين "الصفوة القيادية" من تحريك الحياة، وهو مدار التطوير ومحور البداية ومِفصل التوسط وعلامة النجاح والوصول إلى نهاية.

○ ثم إنّ "تأليف الإنسان" هو الاصطلاح العربي المحض الأصيل الذي سجّلَ السبق على لغة علم التنمية المعاصر العالمي، وهو أدلّ وأوفر في الإدلاء بالمعاني من قولهم اليوم إن الإنسان أثمن استثمار في خطة التنمية.

❑ استثمار مناظر الحياة الجزئية في التأثير

● وعمليات إعادة الصياغة هذه تجعلها التربية التطويرية تمرّ بتجارب مؤثرة في وجدان الناس وقناعاتهم العقلية، وهي كثيرة جداً، وتذكرها بحوث وأشعار وقصص، فيحصل نوع تأثر وترسبات تدريجية من خلال رواية هذه التجارب في أنفُس الذين نريد تبديل قناعاتهم، عبر حقيقة قابلية التأثر التربوي، وكلما زادت بلاغةً أو أعانتها الأساليب الفنية: تضاعفت مقادير التأثير.

● فتجربة بدوي مثلاً مع الرمال والكثبان والوعول والجمال والحَيّات ونبات الصحراء: تجربة عميقة تتركز في قلبه ونفسه الحساسة، فلما يرويها لنا شعراً: نشاركه في فهمه وخلجات ضميره، وهي مشاركة ناقصة غير كاملة، لكنها كافية لصنع تصوّر لنا عن طبائع البادية وحياتها يتكفل بتكوين جزء من تجربتنا، وليس من الضروري أن نخوض التجربة مباشرة.

● ومثله الزاهد المتقلل المتعفف المنفرد المبالغ في قمع الشهوات، يمكن أن نوازيه في ربع وثلث إحساسه وقناعاته وإن لم نزهد مثله.

● والمحسن المنفق المتبرع المحب للخير، والكريم الذي له إيثار: تهز قصصُه نفوسَنا ونتأثر بحاله ونتعظ وإن لم يكن لنا مال نعطيه.

● والفقير المضطر الجائع العريان الذي نَحَلَ وارتجفَ، يهزّ بؤسُه دواخلنا.

● والشجاع، والجبان، والبخيل، والغَضوب، والحليم، لكل منهم أحوال تغزو قلوبنا وتطرق نفوسنا.

● في مئات الحالات والصور الجزئية الأخرى.

ويتعاون المنظر المرئي، مع الوصف البلاغي والشعري، مع الرسم المحاكي والرمزي، مع النغم الغنائي، لضخٍّ أقصى زخم تأثيري للحالة في نفس وعقل المتعامل معها، فتكون ردود فعل واستجابات، فتتحرك الحياة.

● فهذه هي "منهجية التأثير"، ثم بعد ذلك يتفاوت الإتقان، وتقل وتكثر درجة التأثير بمقدار كثافة المرويات والصور التعبيرية المحشودة، ومن ثمَّ فإن الخطة الإسلامية في تحريك الحياة مكلَّفة بواجب تكثيف عملية عرض صور الحياة الجزئية، وأن تستقصي المدلولات الإيجابية التي تريد ترويجها، وتلجأ إلى تنويع في فنون عرضها، ليحصل التأثير الذي تبتغيه، وذلك هو توجّه إستراتيجي في تحريك الحياة، ومن أجله تكون شبكة مؤسسات، وممارسات أدبية وفنية وعلمية، والمنظر الواحد ربما يلزمنا أن نرويه بأكثر من درجة في الصراحة، وأكثر من نوع في الأسلوب واللغة، لتستقبله جميع المستويات، ويُصاغ للطفل والمرأة، والحضري والبدوي، والمثقف والأميّ.

❑ سُلطة الرقابة الاجتماعية على رجال الميدان

● ومما لا شك فيه أن انتصاب القدوات الإسلامية في المجتمع يمنح العملية الإصلاحية بُعداً من الجد تحتاجه حين تريد تجميع ولاء الناس وتأييدهم لها، والناس تطلب ممن يرشح نفسه لمهمات الإصلاح الصعبة صرامة، وإصراراً على حمل الأمانة، ودلائل صدق، وتلبّساً بما يدعو إليه، وتقديم البرهان على أنه السابق وأول الفاعلين، وعندئذ تطيب نفوس الناس لبذل وتضحية ومسارعة إلى ما يشير به القدوة.

وفي القصص: خبر رُوَيم معلّم الزهد، وقوله:

(اجتزتُ ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك وأنا عطشان، فاستقيتُ من دارٍ، ففتحت صبيةٌ بابَها ومعها كوز، فلما رأتني قالت: صوفيٌّ يشرب بالنهار. فما أفطرتُ بعد ذلك اليوم قَط)[٥].

ومواصلة الصوم خلاف السُّنة، ولكن ليس هذا مكان محاكمته على ذلك، إنما مقصدنا الإشارة إلى أن المكانة و اللقب والاشتهار بوظيفة أو صِفة أو مهمة: كل ذلك يتعارف الناس أنه يجب على أصحابها التزام نمط مُعيَّن من الجِدّ ودرجة من

المسؤولية الشخصية في الحفاظ على أخلاقية تليق بها، فتتركز من ذلك رقابة اجتماعية تنقد الممارسة اليومية لأصحابها، من قاضٍ وواعظ وقيادي وداعية، وهذه الرقابة هي محرك من محركات الحياة، ومن شأننا أن ننميها في نفوس الناس وأن لا نتضايق منها، لأنها صمام أمان عند حصول وَسْوَسة عندما يتعب القدوة وتحدِّثه نفسه بلِين، ولذلك يترجح صواب مكاشفة الجمهور بخططنا وفِقْه مواقفنا ومشاريعنا وطموحاتنا، فإنّ إساءة استعمال العامّي لأقوالنا أقلّ بكثير من فوائد نجنيها من نضوج فهم الناس لنا وصرامتهم في مراقبتنا وفحْص سلوكنا الأخلاقي والسياسي، بل ذلك جزء من مستلزمات "الشورى" الاجتماعية، فإنَّ نجاح تشاور الصفوة وأهل الإبداع من المؤمنين الدعاة متعلّق بوجود بيئة حاضنة اجتماعية، وتوعية سياسية وخططية تسري بين عامل وسائق وبقّال وحدّاد ونجّار، مثلما تسود الأوساط الجامعية والتخصصية ورجال المؤسسات، وإشاعة هذا الوعي والفكر السياسي يجلب من الثقة المتبادلة وحُسن الظنون أضعاف ما يولده الفضول من السلبيات، ونحن نحتاج إلى تربية سياسية لأوساطنا ومؤيدينا وللجمهور مثل حاجتنا إلى الممارسة السياسية، كأي صواب له شرط وتكميل، ووسائل الإعلام هي المرشحة لتوفير هذه التربية وتفهيم الجمهور أنماطنا ومذاهبنا.

❑ دور المناظر الجزئية في الإملاء التربوي والتحريك

● وذلك هو الذي يمنع أعمالنا الإسلامية من أن تكون قافزة، وأن تطلب سرعة النتيجة، فإن التهور يكون عند ذاك قريباً، ولكن طريقتنا تؤمن بالصبر، وانتظار نضوج الناس أيضاً وليس نضوج الدعاة فقط، ومعنى ذلك أن نلجأ إلى الالتزام بأنفاس استراتيجية بعيدة المدى، لأن تحريك الحياة يستلزم هذا البُعد البعيد الشمولي، والاقتحام الحكيم المتدرج، والزحف المتوالي، ويُنكر النزول بمظلة، والتسوّر. والطروء المتكلَّف بالقوة، وفرض النفس على أُناس لم يألفوك.

والتطور في المجتمعات احتاج وقتاً لما هو أقل شأناً من شأن الأفكار والسياسة والاقتصاد، كشأن الوعي الفني مثلاً، والأذواق المعمارية، فكيف نسوِّغ لأنفسنا اختصار الزمن في الأمر الأهم؟

فبَعد الحِقبة الطويلة للرسم الرومانتيكي الغربي المعنيِّ برسم المشاهير والقصص الدينية والبطولات: نشأت مدرسة «باربيزون» التي تعتني بالطبيعة ومناظر الحياة الجزئية والحركات الفطرية، فهي تلتقي مع الأدب الذي يصور المناظر الجزئية هذه، وكانت هذه المدرسة خطوة لا بد منها لظهور الانطباعية وتطورها، وما بعد الانطباعية من المدارس الحديثة والتجريد.(٦)

وانظر معاني صورنا الجزئية لحركة الحياة والنبضات، وضرورة تطورهما الآن إلى منظومات علاقات ومعادلات وقوانين تحريك، وهذا تطور قد قامت العلوم الحديثة به وأغنته وأبدعت فيه، وهو كثير، لكن المخطِّط والداعية والسياسيّ يحتاج لرابط يربط له المتناثر من ذلك ويكشف تأويله وفقهه، ومبحث «حركة الحياة» يقوم بهذا الدور.

● لكن كيف تكون خدمة «مناظر حركة الحياة» للفكر والوعي السياسي؟

هذه مسألة تحتاج إلى تَبَسُّط وشرح وتأمل وضرب أمثلة.

فلننظر مثلاً إلى شاعر قديم يصف لنا منظراً جزئياً من ألوف مناظر الحياة، وهو منظر الثور البري الذي يدافع عن نفسه، فيطعن كلاب الصيد بقرنيه، ويكافح لينجو. هذه الحركات الهامشية الصغيرة من الممكن من خلال أدب الحركة الحيوية أن تتطور إلى «موقف انطباعي» في الدفاع والصولة والمعاندة والإصرار على الذود عن الحرية، وأن يكون هناك تأثّر إنساني بهذا السلوك الفطري الحيواني، وأن توضع النفس البشرية موضع المخاطبة التربوية، و«نبضة النفس العزيزة» هي واحدة في حركات الحياة، ولو أن فلماً تسجيلياً من أفلام عالم الحيوان عرض تلك الحركات فإن نزعة الذود تتأكد.

ومن الممكن أن تتراكم انطباعات مثيلة من مناظر شتى فتتكون معادلة ويولد نسَق من المعاني له قدرة وعظية، وعندئذ تتولى اللوحات الفنية ومقاييس علم الجمال المرئي تعضيد الأثر الأدبي، فتتعمق الانطباعات.

● وانظر نمو المعنى وتأكده لو اقترن بمنظر الامتزاج الروحي مع السلاح، كأن تتصاعد مشاعر رامي السهام إذا فتَل رِيشَها ونجح في جعلها تصوِّت صوتاً عند الانطلاق.

وللشاعر الكميت تخليدٌ لهذه اللحظة، إذ يقول في وصف السهام:

هَزِجاتٍ، إذا أُدِرْنَ على الكفّ

يُطَرِّبْنَ بالغِناء المُديرا

وذلك إذا (دوِّم، أي فُتِل بالأصابع).

(لأن السهم إنما يصوّت عند الإدامة إذا كان جيداً، وصاحبه يَطْرَبُ لصوته وتأخذه له أريحيّة)[٧].

وللقوس أيضاً تَرَنُّمٌ ويسمى القوس المصوّت عند التحريك (الزَّيْزَفون)[٨]، فكأن صوتها غناء وأهازيج، فيرقص قلبُ المدير الذي أداره، وتملكه نشوة، وتسمو روحه تلك اللحظات، ويتناوش معنى العزة والشمم والكبرياء الحلال، وهذا ما فطنت له المنهجية القديمة في التربية على معاني الحرية والشجاعة في الحرب، وذلك ملحظ أجدر بالمنهجية التربوية الدعوية المعاصرة أن تستعيره زمن التطبيع، فتجعل لأفئدة الدعاة رقصاً وأريحية عند الصوت العزيز، فتحلق النفوس في الأسماء تأبى السُفل، ولو أنها منعها ظرفٌ: فأولى لها أن تبعث سُنّة الرمي بالسهام وفتل ريشها، على طريقة التمثيل والأداء المسرحي وبعث التراث، من أجل أن تكون لشباب الصحوة ترانيم تتناغم مع غناء الأوتار.

وذلك هو سبيل إتقان التربية لمن أراد أن يذّكر أو أراد نفيرا، وعبارة "والله زمان يا سلاحي" في النشيد المصري تعدل مجلداً في الوعظ.

● وركوب البحر مظهر لحركة حيوية عظيمة جبارة، هُدِي إليها الإنسان، وقذف الله في قلبه شجاعة كافية لممارستها، ولولا ذلك لتهيّب، لما هناك من مخاطرة وصفها عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: (إن البحر خَلْقٌ عظيم، يَرْكَبُه خَلْقٌ ضعيف. دودٌ على عُوْدْ، بين غَرَقٍ وبَرَق.)[٩].

والبَرَق: الحيرة والدهشة وخوف المتاهة.

لكن الإنسان ركبه، ونسي المبالاة والتهيب، واعتاد قلبه المخاطرة.

وبذلك يكون خبر البحر آلة تربوية لجيل الصحوة الإسلامية، فإن المشروع الإسلامي الحضاري مشروع جبار، وفيه بذل، وخفايا، وسعي إلى مجهول، والمحيط السياسي يبتلع الغافل، ومن يُرِد اعتلاءه فعليه أن يتوصل إلى إبداعات كمثل إبداع السفينة والشراع، ويكاد مَن في البدايات أن يجفل ويأس ويرجع ناكصاً، ويلهي نفسه بإعاشة زوجةٍ وأولاد، ولكن منهجيةً من التربية البحرية والمغامرات وعناد الأمواج تَقْدُمُ به، وتُزين له الاقتحام، وتريه إيجابيات المشروع الحضاري إذا استوى، فيعود شجاعاً، ويختار المضي، وبذلك تكون سويعات الخشبة الطافية منظراً حيوياً جزئياً هو مدرسة كاملة لتأسيس الطموح العالي لارتياد إصلاح عالمي سطحه واسع الامتداد كمثل سعة سطح المحيطات، وأيامه المستقبلية المجهولة تماثل ظلمة الليل الكالح بعيداً عن الشواطئ، حيث ليس غير نجوم، وسكون مُدهش.

□ ولك أن تتصور نتيجةً من الإيحاءات النفسية تجمعها المؤثرات الكامنة في هذه الصور الحيوية الجزئية الثلاث: كيف تكون قوية ووافرة، ومؤهلة لإحداث نقلة معنوية وتخطيطية حاسمة في أنفس الشباب المؤمن المنهجي!!

وعلى هذه الطريقة يكون توظيف صور الحياة في عملية استئناف تحريكها.

□ التقاء نظرية تحريك الحياة مع فلسفات حديثة ومعاصرة

□ وهذا النمط من استنطاق المناظر ونبضات الحياة واستخدام الفحوى والمعنى الناتج في التربية وإحداث نقلات في حركة الحياة: سُنَّةٌ حضارية إسلامية

أتقنَتْها أجيال السلف، ثم ذهل عنها المؤمنون في القرون الأخيرة، فتلقَّفها الغربيون، وطوروها، ومنحوها أبعاداً فلسفية، فمصيبٌ، ومُبالغ، ولكن الحياة الغربية العملية استفادت من هذه المنهجية والنظرات الفلسفية برغم ما فيها من تكلّفات وأوهام، لأن أحاسيس الفطرة البشرية عند العمل تتولى التنقية وإرجاع المعاني إلى مقاديرها الحقيقية وتهمل المبالغات، وأحرى بالمسلم التخطيطي المعاصر أن يستعير التطويرات التي صاغتها جمهرة من فلاسفة الغرب في هذا المجال وأدخلتها على الأصل الصحيح الذي عرفه المسلمون، وأن يُنقِّح ما هنالك ويُغربل، حتى تستوي له منهجية جديدة في تحريك الحياة نحو الإيمان تستخدم مدلولات وإيحاءات ألوف المناظر الحيوية الجزئية ونبضات الحركات في الإقناع التربوي، والفكري، واستنباط إشارات تخطيطية، وتوجهات استراتيجية، وأن يماشيني في محاولتي التجريبية هذه لصياغة نظرية إيمانية في تحريك الحياة.

● من هؤلاء الغربيين: باركلي، المتوفى عام ١٧٥٣، وهو أيرلندي، يقول بأن الأشياء المادية ليس لها وجود مستقل، ولكنها مجرد مُدرَكات أو فكرات، والوجود الحقيقي هو للعقل أو الروح وما يشتمل عليه العقل، أي الفكرات، وإنما يُصبح للأشياء أو الأجسام وجود عندما يدركها العقل البشري.(١٠)

وهذا إلحاد، أو هو إسراف ولغْو لا حاجة له، فإن العقل يزيد ويُعمق فهمنا للشيء ولا يؤسسه، كعلم الذرة والفيزياء: جعلت الإنسان أكثر فهماً للأشياء والعناصر وتحول المادة إلى طاقة، وأما الأشياء فكانت مُذ خلقها الله، ولكن المقدار الصائب من كلامه يكمن في أنه يشير إلى وجود مُدركات عقلية واستنتاجات إذا راقبنا الأشياء المادية وحاولنا فهمها، وهذا صحيح، وهو الذي تقوم عليه منهجيتنا الداعية إلى فحص المناظر المادية ومحاولة اكتشاف ما فيها من دلالات معنوية وفكرية وإفصاحات منطقية، وبتراكمها من خلال كثافة الفحص لمناظر مادية كثيرة تتشكل قِيَمٌ وأنساقٌ تقذف في رُوعنا الداخلي فعل شيء، وتحثنا عليه، أو تحذرنا منه وكأنها تنصح تطلب الإبطاء.

● وطريقتنا لها التقاء أيضاً مع الفلسفة الحياتية Life Philosophy .

وهي (فلسفة حديثة تعتبر الحياة الإنسانية وتعبيراتها الثقافية مصدَر الفلسفة وموضوعَها، متمايزة بذلك عن الفلسفات التي تركّز على الشؤون التجريدية، أو الكوزمولوجية "الكونية"، أو غيرها.

والفلسفة الحياتية تؤكد على المظاهر الحَدْسية والتخيلية واللاعقلانية للعقلية الإنسانية بأكثر مما تؤكد على المفاهيم العقلانية والعمليات المنطقية.

من أبرز ممثليها: الفيلسوف الألماني وهلم ديلتاي Dilthey –الذي يُعد مؤسس المدرسة وإمامَها- والفيلسوف الفرنسي هنري برغسون Bergson)[١١].

وهذا التقاء مع طريقتي وسَنَد آخر يشهد لها، وهي فلسفة صائبة ما دامت تعتبر العقلانيات والمنطقيات قسيماً للخيال، والمفروض أن يكون قسيماً مساوياً، أما جعلها أقل، بمفاد قوله: "أكثر من" فهو خطأ يسير يمكننا معه التعامل مع هذه الفلسفة والاستفادة منها بحدود، مع التعديل، ولكن إذا تحمس متحمس لها فألغى دور العقليات فذلك خطأ جسيم يجعل فلسفته هذراً.

والقول بأن الفلسفة الحياتية تؤكد على المظاهر الحدسية والتخيلية: يقترب جداً من دروس ومعان استنبطناها من السهم المغرِّد، ومن قرون ثور يتحدى ويصارع للبقاء، ويمكن أن تستطرد هذه الخيالات الحكيمة لتنسب ألوف المعاني إلى ألوف المظاهر والحركات في الحياة.

● ومن خلال توسيع الجدل في جواب السؤال الدائم: هل الإنسان مسيّر أم مخيّر؟ ومن خلال المبالغة التي وقع فيها بعض الفلاسفة في اعتقاد "الحتمية" و"الجبرية" خلافاً للنظرة الوسطى الإسلامية الجامعة بينهما: مالَ "لابلاس" الفرنسي إلى (أن حالة الكون الحاضرة نتيجة حتمية لحالته السابقة والسبب الكامن وراء الحالة التي تليها، فإذا توصّل عقل ما، في أيما لحظة، إلى معرفة جميع القوى الفاعلة في الطبيعة وأوضاع مقوماتها الخاصة: فعندئذ يستطيع أن يعرف معرفة يقينية مستقبل أيما وجود، أو كينونة وماضي هذا الوجود، صغيراً كان أو كبيراً)[١٢].

وهذا كلام مهم وصائب جداً ويلتقي مع أصل المنهجية التي نتبعها في الكشف عن "حركة الحياة" إلا أن فيه غلوّ الجبريين وأُحادية نظر المتفلسفين، لأن الإنسان في الإسلام دائر بين الجبر والاختيار، فإذا زالت المبالغة عن قول "لابلاس" هذا: صار منهجاً في "التخطيط النافذ"، فإضافةً إلى الملاحظة الإيمانية في التردد بين الجبر والاختيار: نلاحظ أن الله يشاء ما يريد للكون والحياة فيُحدث نتيجة تخالف المقدمة ربما، وأن معرفة جميع القوى مستحيل، لكنها المقاربة والإكثار من اكتشاف العوامل، ويبقى بعضها غيبياً، وأن يقينية معرفة ما سيكون مستحيل كذلك، ولكنها الفِراسة والاستشراف والتخمين والمقارَبة.

مع كل هذه الملاحظة فإن أصل قول "لابلاس" يلتقي جداً مع محاولتنا في التعرّف على قوانين "حركة الحياة" وكيفية السيطرة على هذه الحركة وتوجيهها، وهذا هو الاستخدام الصحيح لحقيقة "مقاربة الحتمية"، أي توظيف هذه القابلية في الربط بين المناظر الحيوية الجزئية والنبضات الحركية الصغيرة الدافعة لتكوين زخم قوي من أجل الوصول إلى "استشراف دقيق" للمستقبل، ثم التأثير فيه عن طريق "السيطرة" عليه بواسطة تخطيط فيه إنماءٌ لجوانب إيجابية، ومنعٌ لسلبيات، وتلك هي غاية نظرية "حركة الحياة".

● ثم هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) Bergson (فيلسوف فرنسي قال بأن في العالم قوة كامنة تعمل على تطوير جميع الكائنات، وقد دعا هذه القوة "دفعة الحياة" أو "الدافع الحيوي". أشهر آثاره: "التطور الخلاّق" عام ١٩٠٧. مُنح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٢٧)[١٣].

وهذا كلام صحيح، لكن بشروطه الإيمانية، فهناك "قوة كامنة" تدفع للتطور، لكنها ليست ذاتية وإنما وهبها الله لمخلوقاته، ابتداءً، ثم تبقى رقابة الله وحكمته مستمرة، حتى الحبّة الواحدة في باطن الأرض يعلمها ويرعاها، وقَدَرُ الله محيط بكل مخلوق ومسيطر، وبذلك يُصبح قول هذا الفيلسوف قريباً جداً من المعنى الذي أحوم حوله في رصد "حركة الحياة".

وجزءٌ من فهم حركة الحياة: أن نلحظ المجرى التطوري في المخلوقات فنحاكيه ونقلده ونحذو حذوه، وأقل درجات التوظيف الناجح لذلك: أن تقارن بعض السلوك الإنساني بالسلوك الحيواني والنباتي، لتكتشف أن فطرة حيوية جامعة توزعت على الكل، فتطمئن إلى أنك مُنساب مع إرادة الله وحكمته، وما أنت بمعاند.

ومن استثمار هذا المفهوم الوسطي المعتدل: انتهاج سياسة واقعية تجاه المال والطيبات والنِّعَم، بمقاربتها واستعمالها، والجري مع منطق الجمال وتأثيراته، ومع حقائق الحُبّ والعشق والزواج، وممارسة العمران والإنماء المدني، وهذه توجهات استراتيجية كبرى منبعها الإدراك الصائب لظواهر التطور الخَلْقي وسر النمو الحيوي ونزعات الفطرة المتأصلة في المخلوقات، مما يضادد منهج اعتزال الدنيا ومزاعم ترويض النفس بحرمانها من الطيبات، ولربما يؤدي فهم منحرف لدى مفكر وقيادي مسلم لهذه القضايا إلى تسيير العمل الإسلامي في طريق خاطئ إذا لم يُدرك دقائق فقه التحريك والتعامل، ولذلك يكون التنزيل الصحيح لعلم حركة الحياة هو منطلق تأمين وعي تخطيطي دعوي سليم.

❑ حقائق الذَّرّة وفيزياء الكم في نُصرة نظرية حركة الحياة

❑ وكان الألماني «هايزنبرغ» إمام علماء أوروبا في القرن العشرين في فيزياء الدقائق الذرية قد توصل إلى قصور الملاحظة التجريبية البشرية وعجزنا عن القياس الدقيق لكل صفات الدقائق الذرية في آن واحد، بل يكون رصدنا المضبوط لبعض الصفات على حساب صفات أخرى وأحوال حركية للدقائق، ولذلك نفى إمكان تصوير دقيق لمكونات الذرة، وقال: (إذا جاز الكلام عن صورة الطبيعة حسب العلوم المضبوطة في زماننا: فينبغي أن يُفهم من ذلك بدلاً من صورة «الطبيعة»: صورة «علاقاتنا مع الطبيعة».)[١٤].

وفي مجال السعي الإيماني للتعرف على الحياة وحركتها: ينبغي أن نفهم أننا لا نكاد نتناوش علماً تاماً منضبطاً في هذا المجال، للتغير الدائم في الحياة، وقصورنا في

الاستيعاب للحقائق أو في التعبير عنها، وأولى لنا أن نتحدث مع أنفسنا عن محاولة لاكتشاف "علاقاتنا" مع الحياة، ونمط فهمنا لها، وتعاملنا مع معطياتها، وقدراتنا في توظيف حقائقها، فإن العلم بنفس الحقيقة الحيوية كما هي يحتاج معجزة لا نملكها.

● والأبعاد في العلم ثلاثة: طول وعرض وارتفاع، وأضافت الفيزياء الحديثة: الزمن.

● وتدأب الفيزياء المعاصرة في التساؤل عن الأبعاد وكثرتها، وهل هي أربعة فقط أم أنها عديدة، والميل إلى تكثيرها يترجح.

وقياس حركة الحياة على هذا المنحى الفيزياوي وارد جداً ويعين على فهم هندسة هذه الحركة، فإن الأجزاء الصغيرة للصورة الحيوية تتجمع فتكون مَعْلماً من معالم الصورة الحيوية الكبيرة، وخطّاً ومساحةً فيها ذات دلالة معينة، ثم تتجمع المعالم والألوان لتكون صورة الحياة التامة.

وعلى نفس النمط يكون رصد نبضات معينة وانتقالات صغيرة، تتجمع فتكون نسقاً حركياً ومفصلاً ومحوراً وقانوناً في ميكانيك التحرك له دور خاص، ومِن جمْع الأنساق والمحاور يتجمع زخم التحريك وعزوم التأثير، ومن جمعها ثانية تتكون الحركة الحيوية، لكن استيعاب هندسة هذه الحركة يلزمه الانتباه إلى أن الحياة الإنسانية هي جزء فقط من حياة الحيوان والكون والوجود وحقائق الفيزياء والخلق، ربما هي الأهم، وللمؤمن بخاصة، لكنها تبقى مرتبطة بقوانين الحركة الكونية، الظاهر منها، مثل حركات الأفلاك وتأثيرات الجاذبية، وغير الظاهر، مثل حقائق فيزياء الكم وطبائع الفوتون وأجزاء الذرَّة، فالحركة الإنسانية التي تُحْدِثها خلجات النفس متوازية ومتناسقة مع تلك الطبائع والحقائق الكمية والكونية، ويُعرف ذلك برصد التشابه، وإمكان القياس والاشتقاق والمحاكاة، ثم القَدَر الرباني الذي لا يلتزم قياساً وحدوداً وافتراضاً مسبقاً: هو فوق الحياتين: البشرية والكونية، ومهارة الرصد والاكتشاف والتفسير لهما تتيح مقدار فهمها، وما هاهنا محاولة رصدية تقبل الإضافة والتوسيع.

● وأهل الفيزياء يحاولون اليوم جمع كل قوانينها في قانون واحد يفسر حركة الكون وطبيعته، ومحاولتنا هذه تقارب هذا المنحى المنهجي في أنها تسعى لرصد

أجزاء الحركة الحيوية وربطها في نسقات، ثم تحشيد هذه النسقات وتوظيفها لتكون نظرة شاملة تكشف وجهة التحرك وكيفيته والمعطيات المتاحة أمام رجل السياسة وقائد الحرب وجامع المال ومعلّم التربية، فمثلاً: إذا كانت هناك ظاهرة الولاء في حياة المخلوقات، والتبعية، والتسليم للغير، وتفويضه، ثم كسلوك إنساني، فإن السياسي الماهر يستخدمها ويوظفها لتكاثر يحسم به أمره.

ومثلاً: إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «نُصِرتُ بالرُّعب من مسيرة شهر» وهو حديث صحيح في البخاري، فإنه يقرر بذلك ظاهرة حيوية، والقائد الحربي يوظف هذه الظاهرة فيعفي نفسَه من دخول المعارك أحيانا، ويكون البديل: استعراض القوة وإعلانها لتحصيل ظاهرة الإرعاب، فيكبح جماح العدو من دون نفير واقتحام.

وهكذا تتعاضد ظواهر كثيرة وتحتشد لرسم السياسات والخطط والمناهج.

● ومن غرائب المرويات التي يليق أن نقف عندها: قول التابعي وهب بن منبه: (لله تعالى ثمانية عَشَر ألف عالَم، الدنيا منها عالَم واحد، وما العُمران في الخرابِ إلا كفسطاط في صحراء.)[١٥].

وقال الزجَّاج: معنى «العالَمين»: كل ما خلق الله.

ولا تقوم برواية وهب حقيقة عقائدية، وربما كمنَتْ خلفَها جذور الإسرائيليات، ولكن يجدر أن نلحظ أن فحواها تلتقي مع آخر ملاحظات علماء فيزياء الكم في وجود عوالم عديدة لها مقاييس فيزياوية أخرى، والمبالغة إنما حصلت في عدد هذه العوالم فقط، والمهم أن معادلات وحقائق الحياة وحركتها المدروسة في هذا المبحث إنما هي لدُنيانا هذه، وربما كانت هناك عوالم أخرى لها أبعاد فيزياوية مختلفة، كما أن إشارته إلى قلة العمران أمام حجم الكون العام توافق قول أهل العلم التطبيقي، بل أمام حجم الكرة الأرضية وعلاقاتها بمواد الحياة، فالعمران اتسع بالمدنية الحديثة والثورة العلمية المعاصرة عما كان عليه زمن وهب، لكنه لا يزال محدوداً أمام سعة المهمَل والخام والمواد الأولية.

ووجود هذه العوالم الأخرى لا يضيف شيئاً إلى علم حركة الحياة، لأنها ذات أبعاد أخرى نجهلها، ولكن العلم التجريبي إذا أقرها فستكون تفسيراً لبعض مجرى الأقدار الربانية التي نستغربها.

❑ منظومات الحركات الحيوية وتبارانها

❑ إن هذه النظرات الفيزياوية التي رشحناها لكي تكون أصلاً لفهم حركات حيوية عبر عمليات قياس: من اللازم أن نفهم أنها يمكن أن تتجاوز عرض نفسها كحقائق مُفردة منفصلة إلى أن تعرض نفسها كمجموعات من الحقائق متناسقة المفردات وتسيطر عليها وحدة موضوعية أو هيكلية ذات روابط، فتقاس عليها آنذاك منظومات من المعاني والأنساق.

وأوضح الأمثلة على ذلك مما يمكن أن يستوعبه حتى طالب المدارس الثانوية: مجموعة العناصر وتصاعدها الذري، من ذرة الهيدروجين المبسطة، مروراً بالكربون، والحديد، والفضة، وصولاً إلى الذهب، والزئبق، صعوداً إلى اليورانيوم والعناصر المشعة، وذلك أن قانوناً يجمعها ويعرضها كمجموعة عناصر، ويسمى «القانون الدوري».

وهو (قانون يقول بأن خصائص العناصر هي دوالّ «جمع دالّة» دورية لأرقامها الذرية، بحيث أنه عندما تُرتّب العناصر ترتيباً تصاعدياً وفقاً لأرقامها الذرية: تتكرر الخصائص المتماثلة دورياً، من أول الجدول إلى آخره.)[١٦].

وهذا مثال واضح لترك العناصر فرديتها وعرض نفسها بشكل «كتلة» وهيكلية ومصفوفة تصاعدية موزونة بميزان.

وفي المخلوقات ظواهر أخرى مقاربة، كمنظومة تدرج المخلوقات من صغيرة غير مرئية، إلى صغيرة مرئية، إلى حشرات وما وازاها، إلى حيوانات أكبر، وقيام توازن بينها، وأن بعضها خُلق ليكون طعاماً لما هو أكبر منه.

وكذلك ظاهرة التوازن البيئي، في البحر، وفي البر.

والألوان وتكاملها وتدرجها، والموجات وأطوالها وترددها.

● فإذا حصل رصد لمثل ذلك في حركات الحياة ومعانيها، وطبائع العلاقات: نجد ظاهرة المنظومات أيضاً.

فالعقيدة الإسلامية وقيامها على ركن التوحيد وتفرعات الإيمان: هي منظومة متجانسة كاملة من المعاني والتصديقات والتصورات.

والأخلاق الإسلامية: منظومة مترابطة أخرى، وتدخل فيها مشاعر القلوب.

والشريعة، كأحكام وحلال وحرام: منظومة أخرى ذات منطق أصولي جامع، وعِلل، وتقعيدات.

وهكذا شأن منظومة فقه اللغة، وموازين الجمال، وأدلة المنطق: كلها لها منظوماتها الكاملة.

وهذه الظاهرة في وجود المنظومات والأنساق تجعلنا نميل إلى دراسة حركات الحياة لا كمفردات، بل كمجاميع بين مفرداتها تماثل وتجانس، وكمنظومات، ولي أن أسميها «الأوعية الجامعة» للمعاني المتقاربة، وعندئذ يكون استثمارنا لها أوفر وأكثر إتقاناً.

والمسيرة التنفيذية لأية خُطة كبرى، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية: تمثل أيضاً هذا «الوعاء» الذي يستوعب أشكال الحركات المنوعة، بألوف نُسَخ من كل حركة، وتتكون «كُتلة» ضخمة مؤداها مترابط جداً ومتساند.

فقيام حزب ينطلق من رؤية معينة للتغيير، وتوالي مراحله من التأسيس إلى الممارسة التجميعية والإعلامية والتربوية، ثم المعارضة السياسية، والوصول إلى الحكم: كل ذلك يمكن أن ينتظمه وعاء واحد تنحشر في ثناياه قضايا فكرية وتنظيمية وتطويرية كثيرة، بعضها من بعض، وما هي بمستقلة.

وكذا العمل الثوري، من ولادته حتى نهايته، يشكل كتلة، والحرب، صغرت أو كبرت: تتجمع حركاتها في كتلة متناسبة تربطها علائق واحدة.

والتاريخ يتكون من اجتماع عدد كبير من هذه الأوعية والكتل، ولو مشينا صُعُداً لأدركنا أن الفتوح الإسلامية كانت وعاء منسجماً لعملية كبرى متماثلة الأجزاء حُصرت حركاتها الصغيرة في وعاء واحد كبير، ولو صعدنا مرحلة أخرى لأدركنا أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بمجموعها ومعاركها وانهيار الفكر الصنمي الجاهلي وتأسيس معاني الإيمان والحلال والحرام واستكمال الشريعة وتتابع وفود قبائل العرب مُذعنة: تمثل أيضاً كتلة واحدة مصبوبة في «وعاء واحد» انتظمت فيه كمية ضخمة من الحركات الصغيرة المتتابعة، وتستطرد هذه الظاهرة لتقسم كل التاريخ إلى مثل هذه الأوعية.

● ولفهم معنى بناء كتلة لها وعاء يجمع شوارد الأعمال الجزئية معاً لتكون الحركة الكبيرة: يلزم أن نخرج في تصورنا عن حدود السذاجة التي ترصد الحركات البدنية فقط، لتجمعها، مثل حركة كل جندي، وكل ثائر، وكل منتظم في جولاته التبشيرية بين الناس، وكل جامع مال أو مُنجِز لعمل عضلي أو فني، فهذه حركات جزئية عددها بالملايين على مدى الأيام بين البدء حتى التوغل والنهاية، ورصدها مفيد ويقدم بعض الدلالة، ولكنها الدلالة الصغرى، وإنما الدلالة الكبرى كامنة في رصد ولادة أنواع الحركات ذات الطبائع الموضوعية، ثم رواجها ونفوذها وانتقالها إلى فكرة أو منظومة لها خصيصتها التخطيطية وقوتها المنطقية الضاغطة وأدلتها العلمية المنضبطة أو زخومها العاطفية واستحالتها إلى جزء من منهجية عمل تفرض نفسها ويكون لها روادها وأنصارها، فتحتل بذلك حيزاً في الواقع وتزاحم المنظومات الحركية الأخرى محاولة أن تزيحها، وقد تتحالف مع حركات أخرى وتتناصر وتتعايش من أجل تعضيد هذه المزاحمة، فأمثال هذه «الحركات» التي لها بناء وأسلوب وآليات هي المقصودة في كلامنا، ومثال ذلك: ولادة فكرة تنادي بالتحدي السياسي، فتتحول إلى وثيقة، وأدب يشرحها، وشعر يؤجج الحماسة لها، ودراسات بحثية تحليلية، وأعمال إعلامية، ورواد يبشرون بها، فتتكون منظومة متكاملة للفكرة هي المقصودة بأنها «حركة»

مؤثرة وتكون ضمن سياق الأداء العام، وتتوالى ولادات حركة تخطيطية، على نفس النسق، وحركة إبداعية، وإعلامية، بل تنقسم الحركة الإعلامية إلى عشرة أنواع من الحركات الإعلامية المتكاملة، كل نوع له منظومته وفكره ودلائله ومنطقه، وكذا التعامل الاجتماعي، قد تحويه عشرات المنظومات من الحركات النفسية والأخلاقية والأُسرية، وتتوزع إلى ما يخص الأطفال والبالغين والنساء والحضر والبدو، والقياس يستطرد.

● والحركات بهذا المعنى وهذا التفسير قريبة من مفاد «المشاريع» و«المهمات» في علم التخطيط، أو هي نفسها، ولكن تفريقنا لها عنها، واستحداث اصطلاح آخر سببُه أن هذه «المنظومات الحركية» قد لا تكون أحياناً مشروعاً يحتوي فكرة ورجالَ تنفيذٍ وعلاقةً بمكان وزمان، وإنما تبقى الحركة «نبضة» واحدة فقط، لها دلالة معنوية وتكتسب شحنة عاطفية عالية، أو إحساساً نفسياً ضارباً في العمق، أو ومضة جمالية، أو لمعة عقلية، ولكن هذه «النبضة» تتعدد نسخها في الحياة إلى أُلوف عديدة وأكثر، فتكون المنظومة ناتجة من جمع هذه النسخ وتكوينها لتيار، وليس من تكامل الفكر والتنفيذ، ومثال ذلك: الفكرة الجزئية يتكلم بها المبدع، من شاعر ومفكر، فتبلغ الآفاق، فيصدقها الناس، من دون رابط بينهم وبين المتكلم بها، فالمنظومة غير قائمة، ولكن هناك بديل عنها هو «التيار» أو كثافة المصدقين.

ومثال ذلك أيضاً: المقاومة السلمية لشيء، أو المعارضة السياسية، أو المقاطعة الاقتصادية، أو العصيان المدني، أو إحداث مظهر عام في البلد له دلالة، كجلوس الناس في أطراف الشوارع والمحلات العامة بهيئة خاصة تدل على رفض أو تأييد، أو الوقوف عن العمل، والإضراب، أو إعلان الحِداد، أو تعليق راية، أو إنارة مصابيح بلون واحد، أو تعليق صورة وبوستر، أو رفع زعيم كبير لشعار من كلمتين فقط وتعليقه بالملايين في كل مكان، أو نشيد يتغنى به كل الشعب، أو صيحات بلاغية جناسية، أو ارتداء قميص متشابه أو قبعة، في مئات المبتكرات

الأخرى المماثلة لهذه، فهذه كلها منظومات في حجم وجودها، ولكنها لا تستوفي الشكل المنظومي العنقودي، وإنما شكل "التيار" أو "الظاهرة العامة" أو "الحركة الكبرى" أو "العاصفة الجارفة" أو "السكون الإيجابي" أو "الاستنساخ".

ومفاد كل ذلك أن "وعاء العمل الدعوي" قد يحوي ثلاثة آلاف منظومة ومشروع ومهمة، وعشرة آلاف حركة تيارية، تتوزع على امتداد عشرين سنة، لتحدث "نقلة حيوية"، فلربما تحوي العملية التربوية مائة منظومة تربوية، ويحوي العمل الإعلامي مائتي منظومة ذات آليات متنوعة، وهكذا.

● وعلم "حركة الحياة" يُفترض فيه أن يتكفل ببيان جذور هذه المنظومات الحركية والتيارات والظواهر، وتأصيلها شرعياً، أو عقيدياً، أو نفسياً، أو علمياً، أو فلسفياً، وكشف صلتها بالحكمة، والعقل، وشهادة التجربة والتاريخ لها، وعلاقتها بالمال والماديات والآليات، ومدى اتساقها مع الموازين الجمالية، والفطرية، ومدلولات الهندسة والرياضيات، لأن بيان الجذور أو التأصيل أو كشف الصلة والعلاقة من شأنه أن يؤدي إلى توليد مُكنة قياسية تحليلية استنباطية تقود إلى منهجية اجتهادية فيها تيسير فهم مجمل "المنظر الحيوي النابض" واستيعاب لطرائق التأثير والتغيير فيه لمن يريد أن يغيّر، وهذه الصنعة هي عين "فلسفة التخطيط" أو "فقه التخطيط"، والمتقن لها يأذن له الله أن يمسك بأعِنَّة وأزِمّة الحركة الحيوية، مؤمناً كان أو كافراً، ولكن "القَدَر الرباني" هو عامل آخر من هذه العوامل الحيوية يقوم بتغليب وترجيح السعي الإيماني إذا سعى المؤمنون في استخدام العوامل الأخرى، ومن ثم صار مبحث القَدَر ضمن عوامل التأثير والتوليد.

ولشرح التعدد الألفي وسببه نضرب مثالاً لطريقة سريان العمل الإعلامي، فالإعلام يتوسل بآليات كثيرة، منها: قناة تلفزيونية فضائية، وإذاعة، وموقع إنترنت، وجريدة، ومجلة عامة، ومجلات تخصصية، وكتب، ورسائل صغيرة، ومطويات، وصور بوستر تعلق، ولافتات، وبيانات، وسينما، ومسرح، ومخاطبة بالبريد

الإلكتروني، ومؤتمر صحفي، وأشكال أخرى، فهذه في حدود العشرين وسيلة، ولو تعددت الأشكال التنفيذية للوسيلة الواحدة، مثل إصدار عشر مجلات لكل منها غاية، وعشر مواقع إنترنت، لكل منها مجال موضوعي خاص، فإن الوسائل أو الآليات ستبلغ أكثر من مائة، يديرها أكثر من مائة فريق عمل، ولو أن معدل التنوع في الأهداف الموضوعية المبتغاة يكون عشرة، فهذه ألف منظومة إعلامية تمثل ألف حركة حيوية، خلال موسم واحد، فإذا تكررت واستُنبط منها كلام إعلامي آخر في مواسم أخرى: فإنها تكون ألوفاً من الحركات. وكذلك شأن التيارات والاستنساخ، فإن مجرد مجيء الناس إلى المساجد وصلاة الجماعة وحصول منظر مهيب لسواد المسلمين هو تيار من الحركة الحيوية ناتج عَرَضاً والأصل العبادة، وتبرع بدرهم واحد فقط من كل مسلم في صناديق في آن واحد في كل البلاد هو حركة حيوية تيارية مثيلة، والقياس يوضح المعنى أكثر وأكثر.

❑ الأعلام الطابِعون..!

□ هذا التكثير، واستنساخ الحركات الصغيرة وتكثيفها: له فنونه ووسائله، وأهمها استثمار ظاهرة إمكان الاقتداء، وذلك أن بلوغ المسلم المستوى الرفيع العالي في الأخلاق والعبادة والحزم، والمُكْنة بأنواعها: هي محرك من محركات الحياة، لا من حيث آثارها المباشرة فقط، فإن ذلك واضح، ولكن من حيث انتصاب هذا المسلم قدوة للآخرين يقتفون أثره ويكررون فعله، فإن شئتَ أن تقول: شخوص القدوة محرك، أو تقول: الاقتداء والتلمذة محرك، فهي حقيقة واحدة يُنظر لها من زاويتين، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالكوفة يَرْحلون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة (فينظرون إلى سَمْتِه وهَدْيه ودّله، فيتشبهون به)[١٧].

والدّل والسمت والهَدْي معانيها متقاربة، وهي حالة الإنسان من حُسن السيرة.

ومثل ذلك أيضاً: ظاهرة التأثير الفكري.

وما كان الفكر ليكون له معنى لولا أنه له سوق وروّاد يتأثرون، فصناعة المفكر المتميز وتمكينه من القول والفعل: من أعظم محركات الحياة، وصناعة التلمذة ذات التلقي والترويج لها محرك مواز عظيم، يتكاملان ليشكلا الحقيقة التربوية الكبيرة، والخطة الدعوية التي تريد أن تستفيد من المحركات الحيوية عليها أن تخطط لإنتاج مفكرين، وتمكن الأذكياء أصحاب الدأب من العلم والعبادة وجمع الفوائد، ثم عليها أن تخطط لعمليات حسن التلمذة ضمن منهجية تربوية شاملة.

● ومن آليات الاستنساخ وتوليد الحركة: اقتداء المحكومين بالحاكم، وميلهم إلى العدل والسكون والعفاف إذا كان رئيسهم عادلاً، وهو تأثير انتصابه قدوة من بابٍ، وتأثير سلطته وهيبته وقوته الضاربة على أيادي المفسدين، من باب آخر، وذلك ما لاحظه الكميت أثناء رئاسة محمد بن سليمان الهاشمي فقال في ثنايا مدحه له:

تَلْقَ الأمانَ على حِياض محمّدٍ

ثَولاءُ مُخْرِفَةٍ، وذئبٌ أطْلَسُ

لاذي تخافُ، ولا لهذا جُرأةٌ

تُهدى الرّعِيّةُ ما استقام الرئِّسُ[١٨]

والثولاء المخرفة: النعجة التي يتبعها خروفٌ وليد.

● وحتى السلطة الجاهلية تمارس توجيه الناس المحكومين لها، وتدفع بعض حركاتهم الحيوية نحو الإيجاب وتوقف السلب، ففي عيد «باخوس» إله الخمر: كان رعايا روما يشربون ويرتكبون الفسوق، وجعلوه خمس مرات في الشهر، وتظهر منهم فيها أعمال المجون: فأصدر مجلس الشيوخ الروماني عام ١٨٦ قبل الميلاد أمراً بتحريم هذه الأعياد. وشريعة الملك البابلي حمورابي كانت قبل ذلك، وفيها حلال وحرام وعقوبات، وما زالت المسلّة التي نُقشت الشريعة عليها محفوظة في متحف اللوفر بباريس.

□ شبكة المنظومات والأوعية الشُّعاعية

□ بمثل هذا الفهم لانقسام عملية حركة الحياة إلى "أوعية" كثيرة كل حِقبة، وفي كل قُطر: نستطيع أن نقرر أن "حركة الحياة الكبرى" تتكون من تنفيذ عدد كبير من الإستراتيجيات، يتم التعبير عن الواحدة منها في صورة خُطة خاصة، ومنظومة عمل، ومجموعة أنساق، وحشد معادلات متكاملة.

وفائدة هذا الفهم أننا عندئذ نستطيع أن نطلب من "المسلم العصري" و"المتصدي الذكي" و"المؤمن الإبداعي" أن يفعل مثل فعل الذين صاغوا المنظومات والخطط وأبدعوها، إذا أراد تحريك الحياة لصالح الإسلام، وأن يطيل التفكير ليأتي بشيء مُختَرَعٍ جديد يستطيع تكثير نُسَخِه لتكون تيّاراً مؤثراً وضغطاً يُزيح شيئاً من الفسوق والعصيان، وأن يكرر تكوين هذه الأشياء الإبداعية في صور كثيرة ليتضاعف حجم التأثير، وليس يفيده أن يبقى مُقلِّداً للأشياء الموجودة، بل يحرص على "الاجتهاد" و"الطرافة" و"التنويع" و"الابتكار"، ليكون طعم "الجديد" حُلواً في قلوب الذين يتعاملون مع مشاريعه التي يحاول تسويقها وإيجاد مناصرين لها وحاملين ومنفذين، وتلك هي الفطرة وطبائع البشر.

ولنأخذ أمثلة تجعل القضية واضحة.

● فالحركة الكشفية لصغار الشباب، وما فيها من تعليم الخشونة والحياة النظامية والجرأة والبقاء في البراري والغابات، وتعليم المهارات، وأخلاق النجدة والإغاثة: ساعدت على كبح جماح التردي الأخلاقي أينما وُجِدَت، وبدونها كان يمكن للفساد أن يكون أسرع وأوسع، وهي برئيسها وقياداتها الميدانية وفروعها في أقطار العالم: تعتبر منظومة كبيرة ذات تأثير كبير في حركة الحياة، والنبضات التي فيها تجتمع في "وعاء" واحد متجانس يُتيح التعامل معه بالجُملة لا بالمفرد، والكلام فيها كثير.

فالمسلم الواعي إذا أراد تحريك الحياة: يبدأ يسأل نفسه: كم يستطيع الاستفادة من هذه المنظومة، وكيف يقوم بتغيير بعض أعرافها لتتجانس مع آداب الإيمان، وما التحويرات اللازمة والممكنة، وكيف يُبدع في إيجاد منظومة مقاربة لها في الغايات والأساليب؟

مما يقاربها مثلاً: حركة نسائية، ومنظومة أمومة واعية، ومنظومة طفولة، وحركة للبدو، وعمل جامع للأميين، ولأهل كل هواية وتخصص، وكيفية تكوين جمعيات مجتمعية مساندة لكل نوع تكون «مثابات» انطلاق وإدامة، وهذا باب واسع في الإصلاح يحتاج التجديد والإبداع.

خُذ مثلاً من خبر الإبداع فيه: ما عمله وزير الصحة الأمريكي أواخر القرن العشرين من تعليم الناس الرياضة الشخصية والمشي والحركات البدنية الصحية، وحثّه الناس على ذلك، وانتصابه كقدوة، واستعماله التلفزيون ووسائل الإعلام في ترويج أنماطه، حتى استوى أتباعه من الشعب الأميركي الذين يمارسون تمارينه عشرات الملايين، فحصل تحسُّن إستراتيجي في المستوى الصحي، وانخفضت الإصابات القلبية وأمثالها إلى قريب من النصف، وتقلّصت الميزانية المالية الصحية كذلك.

فهذا مَثَل لإبداع لم يستطعه الذين قبله ولا الذين من بعده، والمسلم الحضاري مدعو لمثل ذلك، فهي «هِمّة» واحدة أوجدت «ثلاثين مليون هِمَّة مستنسخة»، وكذلك الإبداع يكون، ومن شأن مجتمع الإسلاميين أن يتفوق تفوقاً استراتيجياً صحياً على التجمعات المنافسة له من خلال منظومة شبيهة إبداعية.

● وإذا رجَعنا قروناً إلى الوراء لأدركنا العديد من الاختراعات والقفزات العلمية التي قفزت إلى الأمام بحياة البشر جميعاً، أو أُمة استأثرت بذلك، وكان المفكرون والمؤلفون والمؤرخون والأُدباء يدونون كتبهم، فتشيع بعشرات النسخ فقط، ولربما تجد في القُطر الواحد نسخة واحدة يتناوب القراء تداولها، فاخترع غوتنبرغ الطِّباعة عام ١٤٥٢، فحصلت ثورة علمية ثقافية في كل المجتمعات ودخل الكتاب إلى كل بيت، وتولدت ألوف منظومات التحريك الحيوي من خلال هذا الاختراع ذات أعداد لا يمكن إحصاؤها من نُسخ التأثير.

ويعترض مستعجل محتجاً بأن هذه أمثلة هي فوق مستوى طاقة محيط الصحوة الإسلامية وتجمعاتها.!

ومع أن ترتيب جواب على ذلك أمر سهل، إذ لا يوجد مانع من أن يكون مسلمٌ يُبادر إلى اختراع شيء مثيل يضعه في استخدام العمل الإسلامي أو الأُمة كلها أو أُمم الأرض، فتولد منظومات تأثيرية، إلا أننا نجاري منطق المجادل فنرجع إلى الزمن المعاصر لنرى البرمجيات الكومبيوترية وآثارها في تكون منظومات تأثير ونجاح رجال من كل الشعوب في الإبداع في هذا المجال، فصحيح أن اختراع الكومبيوتر نفسه هو عمل متقدم ويتطلب قاعدة علمية وبحثية وصناعية لا نملكها، ولم نستطعه، واستطاعه الغرب، ولكن ما تفرع من هذا الاختراع، من الإنترنت والبرامج الضخمة والشبكات يستطيعها الأذكياء المبدعون في كل أمة، ويليق أن نجد من المسلمين من يُباري في هذا المضمار، ويبتكر، ويُتيح للعمل الإسلامي العام أن يوجد منظومات كبرى تجعل توليد النسخ التي تكرر نوع العمل ممكناً، فتتكون تيارات تأثيرية واسعة في حياتنا تجعلنا ننافس من موقع قوي، وننشر الوعي، والنمط الحضاري، والأداء الحُرّ، والمعنى العزيز، ولمسات الجمال، فينتهي الأمر إلى ضغوط، وتشغيل طاقات، وجمع أموال، ورواج فكر، وتكون السَّنة شهراً، والساعة دقيقة، ونختصر الزمان، ونكون سادة المكان، ونصنع "أقداراً" خيرية بإذن الله نحن نختار هندستها وصفتَها، ولا نلبث نردّ أقداراً غازية سيئة تأكل أخضرنا، وتستهلك أرواحنا.!

وأنا أنظر هذه السنوات إلى عشرات ألوفٍ من شباب الصحوة الإسلامية في كل قُطر من أهل البراعة الهندسية والعلمية، فأجد خطباء العاطفة يخدِّرونهم بما عندهم من حديث جميل، فأتأسف إذْ لا أجد خُططاً واعية جادة لتشغيل واستثمار طاقات هؤلاء الشباب في أعمال إبداعية وصناعة برامج تشغيل تتحول بحقائق فكرنا القديم وأخلاقنا العتيدة وقضايانا إلى "منظومات تأثيرية معاصرة" تنتقل بمستوى الولاء إلى سَعةٍ مليونية، وتصوغ لهؤلاء الشباب علاقات تأثير،

وارتقاء، وتصنع لهم فرص تطور حقيقي ونفوذ قيادي اجتماعي من دون تكلّف وتطلّع، وهذه إحدى القضايا المهمة التي يقصدها مبحث "حركة الحياة"، فالمبحث مَعْني بدفع الشباب الإسلامي إلى مراكز تأثير في عموم مرافق الحياة، من خلال انسيابية مسترسلة بريئة من محاولة إزاحة أحد، أو الالتفاف على قيادي موجود، وإنما على قاعدة: هُم رجالٌ ونحن رجال، والمكان واسع يَسَعنا جميعاً، وأن الأساليب العلمية المعاصرة تتيح لمستعملها التفوق والصدارة.

❑ الاستعمار الإيماني بُطْلِفُه العاصفون

❑ وهذه التطلعات الحلال مهددة بالتقلص والضمور إذا اقتصر الشباب عند تنفيذها على شرح مفردات العقيدة والشريعة، فإن التكرار في ذلك أصبح شائعاً، ونِعمّا هو، ولكننا نريد أن نُصلح الحياة بإعمارها أيضاً، وتنمية الثروات والعلوم، وذلك يحتاج لمسة إيمانية وصرامة وإخلاصاً ودرجة من الاندفاع والأداء المنهجي، ولن نجد كل ذلك إلا عند شباب الصحوة الإسلامية إذا أردنا المستوى العالي ووفرة عدد المصلحين، وهذا يجبر خطتنا في مماشاة "استراتيجية الحركة الحيوية" على أن تجعل من "التنمية الشاملة" شغلاً رئيساً لها، وأن يشمل اختراع المنظومات فروع هذه التنمية جميعاً، لنكون قادة الحياة، وأما أن أقودها في المسجد وفي بيتي، ثم أترك المصنع والسوق والمختبر والشارع والشركات لجاهلي أو لأحد لم يسجد لله: فذلك هو القصور.

❑ والنظر المتأني يرينا أن مجمل "حركة الحياة" في قُطر من الأقطار، أو إقليم: تشارك فيها عوامل كثيرة جداً ينبغي أن لا تغيب قضية "تكامل التعامل معها" عن بال المخطط الذي يروم السيطرة، والواقع السلبي ينبغي أن تقابله ردود بعدد مكوناته:

● فمن العوامل المؤثرة سلباً وإيجاباً:

الأمية، والبطالة، ونسبة الإنتاجية، والنظم التعليمية، ومدى المشاركة النسوية، والتنمية البشرية، ومدى الإنفاق على البحث العلمي، وصحة الطفل، ومدى المشاركة في الحياة السياسية، ووفرة جمعيات المجتمع المدني، والتربية التطويرية الإدارية الإبداعية، وتحصيل ضمانات لحفظ حقوق الإنسان والحريات، وعقد المؤتمرات والندوات واستضافة الخبراء، وتحرير المال الإسلامي من هيمنة الأجانب، وتحرير الصنعة الإعلامية أيضاً، وتوجيه الفن بما يناسب عقائدنا وشرعنا، وترويج أدب عفيف، ونقل التكنولوجيا إلى محيطنا: كل ذلك وأمثاله تلزمه دراسات وصناعة منظومات تأثير حيوي لها، وإبداع "المسلم الرائد الحضاري" هو الأصل فيها.

● فهذه الأمور كلها يكثر انتقاد الباحثين لبعض الحكومات في مواقفها تجاهها، إذْ هناك تسيُّب ولا أُبالية وفساد إداري وضعف تخطيط، وخيانة، وفوضى، وسرقات البحث العلمي، وتزييف استطلاعات الرأي، وأخطر ما هنالك: خطط التجهيل والإلهاء أحياناً.

وكل ذلك سلب مدمر، فإذا قابلته الدعوة بعلاج حاسم في أوساطها فإنّ إيجابها يكثر حتى تترجح القلة المنهجية الموضوعية المخلصة الدائبة على الكثرة اللاهية الفاسدة الفوضوية، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون محور التفكير، فإنّ وجود "التيار الإسلامي" ليس هو العامل الحاسم فقط وبذاته، فإنه عامل ترجيح أولي عام، ولكن آثاره تتضاعف ببذل تربية إبداعية لأفراده يفتقدها المجتمع العام، وتحقيق تدريب وتطوير تنموي للطاقات البشرية الدعوية، ووضع رؤى استراتيجية واستشرافات مستقبلية، وتحسين صحة المصلين، والقضاء على الأمية في أوساط أنصارنا، وعلى البطالة بين منتسبينا والدوائر التي حولهم، وتوجيههم نفسياً، وإيجاد توعية للمشاركة السياسية التامة، وتوعية للمرأة وإشراكها في النشاط، والعناية المبكرة بالطفل لتحقيق تفوق إستراتيجي له على الأطفال

السائبين، وإيداعه المدارس الذكية، وحل مشكلة الإسكان، والنقل والتأمين على الحياة بحلول شرعية، ومضاعفة الإنتاجية من خلال المنهجية والوعي، والنظافة، والذوق السليم، والأخلاق الفاضلة الملتزمة بأحكام الحلال والحرام، وعدم التدخين، فضلاً عن البعد عن المخدرات، كل ذلك نفعله في دارنا الإسلامية الخاصة ولأفراد التيار الإسلامي من أجل رفع قدرتهم التنافسية، ثم نبذل ذلك للأقرب فالأقرب من المؤمنين والمجتمع العام، ونضع منظومات لذلك، في عشرات الحلول الأخرى التي تعطي للوجود الجماعي التنظيمي مداه الحيوي التأثيري الحاسم، فيحصل التفوق الإستراتيجي.

● وتيار "أحزاب الخُضر" في أوروبا وبلدان أخرى مثال آخر حي لصناعة "تيار" يتحول إلى "منظومة تأثير" لها أنساقها، وإذا كانت قضايا البيئة والتلوث هي محور نشاط هذه المنظومة: فإنها قد تعدته في بعض البلاد، فسَرَتْ رقابة الخضر إلى المحيط السياسي، ودققت في النظافة السياسية، وعارضت العولمة الأمريكية، وانتصرت للعراق، وفيها إرهاصات الانتصار للفلسطينيين، وتلك تجارب ناجحة تثير سؤالاً عما إذا كان بمقدور شباب جيل الصحوة الإسلامية من رواد التمكين والمنهجية والأنماط الخططية أن يبتكروا لنا تياراً عالمياً، أو في حدود العالم الإسلامي على الأقل: على مثال نشاط الخُضر هؤلاء: ينتصر للمستضعفين، ويطالب بالحريات، ويغسل المحيط السياسي سبعاً إحداهن بالتراب، ويوجد لمنتسبيه مجموعة شعارات ومواثيق وصيحات وعلامات مميِّزة وإشارات وألوان، ويكون حليفاً لحركات الإصلاح الإسلامي؟

● إن أول خطوة في الطريق إلى مثل هذه الاستراتيجيات فيما أرى أن يتعاهد بضع عشرات من شباب الصحوة في كل مدينة من حواضر الإسلام الكبرى في العالم على أن يجلسوا شهرياً جلسات "عَصفٍ ذهنيٍ" إبداعي مُركّز، ليخرجوا باقتراحات، ثم إذا بلغوا مائة مجموعة عصفت كل منها عشر عواصف خيرية: أن يجتمعوا في مؤتمر جامع لدراسة وتنقيح العواصف الألف، فتكون ولادة مشاريع

منظومات استراتيجية كثيرة العدد، ويكون من بعدها تشغيل عشرات ألوف الشباب الحائر الآن الذي آذاه الترهل جراء الأساليب الرجعية العتيقة في هذه المجالات التشغيلية الجديدة المنفتحة المجارية للابتكارات العالمية.

□□□ ومن هذه النقطة تكون البدايات الاستدراكية.

---

(١) (٢) لسان العرب ١/ ٣٢٦، ٢/ ٥٦٧

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط/ ٢٩٣

(٤) لسان العرب ٢/ ١١٠١

(٥) الرسالة القُشيرية/ ٣٥ طبعة دار التربية.

(٦) انظر بعض خبر هذا التطور الفني في موسوعة المورد ٢/ ٢٩

(٧) (٨) (٩) لسان العرب ١/ ١٢٣٣، ٢/ ٣٢، ١/ ١٩٨

(١٠) (١١) (١٢) (١٣) موسوعة المورد ٢/ ٥٧، ٦/ ١١٩، ٣/ ١٨٣، ٢/ ٥٦

(١٤) كتاب «فرنرهايزنبرغ»/ ١٢٦ ترجمة وجيه السمان/ دمشق

(١٥) لسان العرب ٢/ ٨٧٢

(١٦) موسوعة المورد ٨/ ١٢

(١٧) (١٨) لسان العرب ١/ ١٠٠٦/ ١٠٩٠